

الله صمعي

عبد الملك بن قريّب

دراسة: نهلة حمصي

مقدمة :

أتيج للغة العربية قبل الاسلام وبعده أن تحتك بلغات كثيرة على طريق التجارة والهجرة والرحلات ، وكان من الطبيعي ، ووفقاً لنواميس علم اللغة أن تتأثر اللغة العربية بغيرها وتؤثر فيها .

ثم كانت الفتوحات الاسلامية التي أدت الى امتزاج العرب واحتكاكهم بكثير من الشعوب ، ونتج عن ذلك اشتباكات بين اللغة العربية ولفات الأمم الأخرى ، كالآرامية في سورية ولبنان والعراق والتركجية في بلاد المغول والفارسية في ايران . ومن المقرر أن اللغة المقهورة تترك في اللغة الغالبة كثيراً من مظاهرها ومفرداتها .

وهكذا دخل العربية من تلك اللغات ألفاظ ومفردات . ولكن صراع العربية والفارسية كان هو الأشد ، وقد ترك في كليهما أثراً ظاهرة .

ومنذ أواخر عصر بني أمية عني جمهور كبير من علماء البصرة والكوفة - أهم حاضرتين علميتين - بجمع ألفاظ اللغة وأشعار العرب في الجاهلية والاسلام ، وكان من أسباب ذلك حاجة الشعوب التي دخلت في الاسلام الى تعلم لغة القرآن ، وشيوع اللحن ، وتعمده اللهجات العربية .

ومن أجل هذه الأسباب أخذ علماء البصرة والكوفة يجمعون ألفاظ اللغة وأشعارها حتى لا تفنى العربية في لغات الشعوب المستعربة ، وحتى تبقى لها مقوماتها الأصلية وكانوا شديدي الحيلة في جمعهم ألفاظ اللغة الى حد الافراط ؛ فكانوا يتعاشون الأخذ عن تشوب عربيته أية شائبة ، ولذا كانوا لا يأخذون الا عن عرب البادية لفصاحة

ألسننتهم وبعد لهجتهم عن التأثر باللغات الأعجمية ، وقلة احتكاكهم بغيرهم ؛ فكانوا يرحلون في طلبها الى باطن الجزيرة العربية . وعن (أبي عمرو بن العلاء) شيخ البصرة أنه قال :

« لا أقول مما قالت العرب الا ما سمعت من عالية السافلة وسافلة العالية ويقصد الجزء الغربي من نجد وما يتراعى اليه من السفوح الشرقية لجبال الحجاز » .

والى جانب الرحلات الى باطن الجزيرة ، حيث ينابيع اللغة الصافية كان اللغويون يترقبون مجيء أعراب البادية الى المدن ، في التجارة أو غيرها ، فيستمعون الى أحاديثهم ويناقشونهم في مختلف شؤون اللغة ثم يدونون من فورهم كل ما يهديهم اليه الحديث وترشدهم اليه هذه المناقشة حول مفردات اللغة ودلالات معانيها ووجوه استخدامها ، وكانوا في طريقتهم هذه يتبعون ما يسميه علماء اللغة بطريقة الملاحظة السلبية .

وقد تعاقب في هذا العصر ثلاثة أجيال من علماء البصرة والكوفة تجمع اللغة والشعر . أما رأس الجيل الأول فهو أبو عمرو بن العلاء المتوفى في عام (١٥٤ هـ) وهو أحد القراء السبعة المقدمين الذين أخذت عنهم قراءات القرآن الكريم ، وكان حجة ثبوتاً صدوقاً ، وفيه يقول الجاحظ في البيان والتبيين : « كان أعلم الناس بالعربية وبالقرآن وغريبه وبالشعر وبأيام العرب وأيام الناس » .

وأما أشهر أفراد الجيل الثاني فخلف الأحمر المتوفى سنة (١٨٠ هـ) والأصمعي المتوفى سنة (٢١٣ هـ) كما تقول أكثر الروايات .

وأما أشهر أفراد الجيل الثالث من لغويي البصرة فهو محمد بن سلام الجمحي صاحب طبقات فحول الشعراء الجاهليين والاسلاميين .

وقد اخترت من بين هؤلاء - الأصمعي - وذلك لكثرة ما ورد اسمه في بطون كتبنا اللغوية والأدبية والتاريخية ، راويةً للغة والشعر والفكاهة .

- فمن هو الأصمعي ؟ -

ينسب الأصمعي الى جده أصمع فهو (عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي) والصمع هو التصاق وصغر في الأذن .

ولنستمع الى ما قاله فيه علماء عصره . يقول أبو الطيب اللغوي : « كان الأصمعي أتقن القوم للغة وعلومها ، وأعلمهم بالشعر وأحضرهم حفظاً » .

ويقول ابن عساكر : « فهذا الأصمعي يفتخر في علم الشعر والعربية بكثرة الرواية ، ويعتقد أن العلم يصح بالرواية والأخذ من أفواه الرجال » .

ويقول المبرد : « كان أبو زيد صاحب لغة وغريب ونحو ، وكان أكثر من الأصمعي في النحو ، وكان للأصمعي يد غراء في اللغة لا يعرف فيها مثله في كثرة الرواية » .

أما الأخفش فيقول : « ما رأينا أحداً أعلم بالشعر من الأصمعي وخلف ، فسئل أيهما أعلم ؟ فقال : الأصمعي لأنه كان نحويًا »

وهكذا تقدم لنا كتب التراجم الأصمعي : اماماً لغوياً أديباً نحوياً روايةً للأخبار .
وقلما يأخذ قارئ العربية كتاب أدب ولا يرى فيه للأصمعي خبراً عن الأعراب وأهل البادية ،
حتى أصبح له في تاريخنا الأدبي وضع خاص .

الأصمعي اللغوي : ولد الأصمعي في البصرة في أواخر العصر الأموي ومات فيها ،
وكان في حياته كثير التطواف في البوادي ، يقتبس علومها ويتلقى أخبارها ويتحف بها
الخلفاء فيكافأ عليها بالعطايا الوافرة ، وقد عرف بكثرة الحفظ ورواية الشعر ، وكان
الرشيد يثق به ويعجب ، ولذلك استقدمه وعهد إليه في تأديب ولده .

ولقد عرف الأصمعي بالصدق والتدين وعدم تفسير شيء من القرآن ، كما أخذ عنه
تخرجه عن انشاده ما كان فيه شيء من القرآن أو الحديث وليس له في اللغة أي نظير أو
اشتقاق ، كما أنه لم يترك أي كتاب في غريبهما مع أن كل لغوي كان يفسر لعلمه بغريب
القرآن ، وقل من اللغويين من لم يترك كتاباً في الغريب .

ومما يروى عن الأصمعي في ذلك ما يذكره ابن دريد في الجوهرة في باب ما اتفق
عليه أبو زيد وأبو عبيدة فهو يقول : « وكان الأصمعي يشدد فيما ينقل ، وقد طعن في
أبيات قالتها العرب ، واستشهد على ذلك . فمن ذلك : بان لي الأمر وأبان لي وأنار لي
الأمر وأنار الي » . إلى أن وصل إلى سري وأسرى فلم يتكلم فيه الأصمعي لأنه في
القرآن » .

ويذكر ابن جني عن نصر بن علي أنه قال : (حضرت الأصمعي وقد سأله سائل عن
معنى قول النبي ﷺ جاء أهل اليمن وهم أنجع نفساً ، قال : لعله أراد أقتل نفساً ، ثم
أطرق متندماً وأقبل على نفسه كاللائم لها فقال : وما أخذني بهذا ؟ وما علمني به ؟ فقلت
له : لا عليك ، فقد حدثنا سفيان بن عبيدة عن أبي نجيع عن . . . في قوله عز وجل :
فلعلك باخع نفسك ، أي قاتل نفسك ، فكانه سري عنه .

فاذا أردنا أن نفسر سر تخرجه من ألفاظ الحديث والقرآن فلعلنا نرد السبب إلى
عاطفته الدينية الورعة وإلى طبيعته الصادقة التي تخشى الكذب والخطأ وبخاصة فيما
يتعلق بالقرآن أو الحديث .

ولقد كان الأصمعي عربياً ، ويظهر احترامه لأقوال قدماء العرب واضحاً ، ولقد
حدا به إفراطه في حفظ العربية إلى الزرارية على المولد والأدب الحديث في زمانه ، وكان
يقول كما قال أستاذه أبو عمرو بن العلاء عن أدباء زمانه : « ما كان من حسن فقد سبقوا
إليه وما كان من قبيح فهو من عندهم » . وكان قليل الثقة بما يأتي به المولدون ؛
وحكايته مع الديباج الخسرواني تدل دلالة واضحة على احترامه للقدماء ؟ وتروي هذه
الحكاية « ان اسحق الموصلي نظم بيتين قلد بهما القدماء ، فلما أصبح أنشدهما الأصمعي ،

فقال له معجباً بما يسمع : هذا الديباج الخسرواني ، هذا الوشي الاسكندراني ، لمن هذا ؟ فقال اسحق الموصلي : انه ابن ليلته ، انه لي ، فقال الأصمعي متضايقاً : أفسدته ، أفسدته ، أما ان التوليد فيه لبيّن . »

وعلى الرغم من وصف الأصمعي بالثقة في روايته فقد لقي من يتهمه بالتزيد في اللغة ورواية ما لم يكن فيها . وعن ابن الأعرابي قوله : « لقيني أبو محلم ومعه أعرابي ، فقال : جئت بهذا الأعرابي لتعرفوا منه كذب الأصمعي ، أليس هو القائل في بيت عنتره :

شربت بماء الدحرضين فاصبحت زوراء تنفر عن حياض الديلم

ان الديلم هم الأعداء لأنهم الأعاجم ؟ سلوا هذا الأعرابي ما معنى الديلم ، فسألناه : ما الديلم ؟ فقال : الديلم حياض بالفور أو ردتها ابلي غير مرة .

وروي عن ابن الأعرابي أيضاً : سمعت من ألف أعرابي خلاف ما قاله الأصمعي .

ولكن أكثر كتاب السير تقدمه لنا لغوياً يوثق به وتقبل روايته كأصح راو للغة . يقول السيوطي : « الأصمعي كان يجيب في ثلث اللغة ، وكان أبو عبيدة يجيب في نصفها ، وكان أبو زيد يجيب في ثلثها ؛ وذلك لأن الأصمعي كان يضيق ولا يجوز الا أصح اللغات ، ويلج في ذلك ويمحك . »

ولقد ابتعد الأصمعي عن الأهواء ، وكان كل من الشافعي وابن حنبل وأبي داود وغيرهم من الأئمة يثني على الأصمعي في السنة وينعته بالثقة والصدق . وقد روي عن الشافعي قوله : « ما رأيت بذلك المعسكر أصدق من الأصمعي . » كما يذكر ابن الأنباري الحادثة التي جرت بين الأصمعي وأبي عبيدة مع الفضل بن ربيع الذي سأل الأصمعي : كم كتابك في الخيل ؟ فقال : جلد ، فسأل أبا عبيدة السؤال عينه فقال : خمسون جلدًا . وعندما سأل الفضل أبا عبيدة عن مدلولها لم يدر ، ولكن عندما سأل الأصمعي عرف بدقة مدلول كل لفظة مشيراً الى موضعها في الفرس . وكان ذلك نتيجة مخالطته الأعراب طويلاً وسماعه منهم واتصاله بهم في معيشتهم ، على حين أن أكثر علم أبي عبيدة نظري ، ويذكر الأنباري حادثة ثانية بعد أن يقول : « كان الأصمعي واسع العلم باللغة والفاظها وتحديد معانيها واشتقاقها » . فقد روي عن الأصمعي أنه حكم بحضرة الرشيد في الفرق بين عقلت القتل وعقلت عنه ، فلم يفهم القاضي الفرق ، الى أن شرحه الأصمعي له ، فاذا عقلت القتل : أديت ديتة ، وعقلت عنه : اذا لزمته دية فأديتها عنه .

وكان يساعد الأصمعي صبر وجلد وحافظة جيدة . ويروي أن أعرابياً رآه يكتب كل ما يقول ، فقال له : ما تركت شيئاً الا غصته ، ورآه أعرابي آخر يكتب ما يسمع من ألفاظه فقال : ما أنت الا الحفظة يكتب لفظاً للفظة . .

ولقد بولغ في سرعة حافظته فقليل : ان القصيدة الطويلة تمر على مسمعه مرة واحدة فيحفظها .

فاذا أردنا تلخيص الأصمعي بوصفه لغوياً وجدناه من أكثر دارسي الأدب واللغة تقديراً للقديم مما قالته العرب ، وقد كان اتباعياً ، يمجّد السلف وآثاره ويروي هائماً أسفاره وأخباره ، ويعادي أمثال أبي عبيدة والجاحظ ، لأن الأول كان شعبياً وكان الثاني معتزلياً وكان الأصمعي في عدائه يرى (في نعله المخصوفة بالحديد نعم قناع القدري) . وكان ثقة فيما يروي . وقد ساعده على جمع الألفاظ حافظة لاقطة وذاكرة سريعة وجلد وصبر لا بد أن يتحلّى بها العالم الحقيقي .

الأصمعي النحوي :

إذا نظرنا الى أسماء الكتب التي يعددها الزركلي في كتاب الأعلام كما تعددها الموسوعة العربية الميسرة للأصمعي وجدناها كثيرة ، ويبدو أن بعضها قد فقد وأخرى لا تزال مخطوطة وبعضها قد وجد طريقه الى النشر ، كما نجد أكثرها كتباً لغوية صرفة ككتاب « الخيل » و « خلق الانسان » و « الابل » و « الترادف » و « الفرق » ومعناه الفرق ما بين أسماء الأعضاء من الانسان والحيوان و « الشاء » و « الدارات » و « الوحوش وصفاتها » و « النباتات والشجر » و « النخل والكرم » . أما كتبه النحوية فليست بالمعنى الذي يفهم به النحو ؛ فقد نجد أسماء كتب مثل كتاب « القلب والابدال » وكتاب « الهمزة » وهي أكثر قرباً للغة منها للنحو والصرف . فاذا أردنا أن نعرف مذهبه في النحو وجب أن نتلمس ذلك من خلال دراستنا له لغوياً . وتروي لنا كتب السير نقفاً من أخبار الأصمعي النحوي ؛ ففي نزهة الألباء يروي الرياشي عن عمرو بن مرزوق قوله : « رأيت الأصمعي وسيبويه يتناظران ، فقال يونس : الحق مع سيبويه والأصمعي ، والأصمعي يفلبه بلسانه في الظاهر - نزهة الألباء ص ٨٣ .

وإذا عدنا الى كتاب : « الانصاف في مسائل الخلاف بين الكوفيين والبصريين » الذي وضعه ابن الأنباري نجد اسمه يتكرر ثلاث مرات فقط ، أما الأولى فيروي فيها كلمة عن عمرو بن العلاء فيقول : « سمعت أعرابياً يمانية يقول : فلان لغوب (١) جاءتته كتابي فاحتقرها ، فقلت له : أتقول جاءتته كتابي ؟ فقال أليس الكتاب بصحيفة ؟ » ويحتج البصريون على حمل العرب على المعنى في كثير من كلامهم .

أما الثاني فعندما يستشهد البصريون على الكوفيين بكتابه الذي ألفه في الكلمات التي حذفت علامة تانيثها ولم تختص بالأنثى بل اشتركت بين الرجل والمرأة كما قرء وناصل ، يقول أبو البركات ابن الأنباري في آخر الرد على الكوفيين : « كيف والأصمعي قد صنف في هذا النحو كتاباً وهو كتاب « المذكر والمؤنث » . أما المسألة الثالثة فاستشهاد البصريين بقوله في بيان أن المعتل يختص بأبنية ليست للصحيح كوزن (فيعل) وذلك في روايته التي يقول فيها : سمعته يقولون : جاءت الصيقل بكسر القاف وإذا امرأة كأن وجهها السيف .

وقد عدّ ابن الأنباري وزن صيقل بكسر القاف من شذوذ وزن الصحيح مثله مثل عين بتشديد الياء وفتحها في المعتل (الانصاف في مسائل الخلاف - ٨٠٣/٢ - ٨٠٤) .

وهنا نستطيع أن نصل الى نتيجة ، فالأصمعي كأكثر دارسي الأدب واللغويين يوقر القديم مما قالته العرب . ورغم تحفظه لبعض العرب في أقوالهم وتحرية الدقيق البعيد من اللغة لم يكن كالبصريين في النحو ولم تكن له وجهة نظر معينة في هذا العلم ، ولعله كان في هذا أقرب الى مذهب الكوفيين الذين يعنون بالسماع ويقدمونه على القياس . ولقد كان من أهم الاختلاف بين مدرسة البصرة والكوفة أن البصرة استعانت بالقياس ووسعت به مسائل النحو ، حتى ان علماء النحو أرادوا تمشياً مع غرضهم أن يهدروا الشواذ ، فإذا ثبتت صحتها قالوا : انها تحفظ ولا يقاس عليها ، بل جرؤوا وخطأوا بعض العرب في أقوالهم اذا لم تجر على القواعد ، أما الكوفيون فرأوا أن يحترموا كل ما جاء من العرب ويحيزوا للناس أن يستعملوا استعمالهم ولو كان الاستعمال لا ينطبق على القاعدة العامة ، وما من شك أن البصريين قد سبقوا الكوفيين في النحو ، وأن الكوفة لم تسهم اسهاماً حقيقياً في وضع أصول هذا العلم .

وقد أراد الخليل أن يعلم الأصمعي (الفرض) (٢) فتعذر ذلك على الأصمعي وبعد عنه ولم يستطع أن يكون كالعقلين يقيس على ذلك الكلام . لقد كان الخليل والأصمعي على الرغم من كونهما من البصرة متبايني المذهب ، فقد كان الخليل ذا عقل رياضي منطقي قيّاس ، وكان في ذلك سيدقومه وكاشف قناع القياس في علمه ، وكانت طبيعة الأصمعي لغوياً أغلب من كونه نحوياً ، ومما لا شك فيه أن شأن اللغوي أن ينقل ما نطقت به العرب ولا يتعداه ، أما النحوي فشأنه أن ينقل ما ينقله اللغوي ويقيس عليه ، ومثاله المحدث والفقيه ، فشأن المحدث نقل الحديث برمته ثم ان الفقيه يتلقاه ويتصرف فيه ويبسط علله ويقيس عليه الأمثال والأشباه .

الأصمعي والشعر :

كان الأصمعي كما مر صاحب حافظه عجيبة في حفظ الشعر وقدره على اختيار الجيد منه ، وكان الأصمعي يقول عن نفسه : « أحفظ عشرة آلاف أرجوزة » وقيل : (بل ستة عشر ألفاً) اضافة الى ما كان يحفظه من دواوين الشعر .

ويروى أن أبا جعفر المنصور أشار على المفضل الضبي أن يختار أجود قصائد المقلين ليدرب بها المهدي ابنه ويعلمه روائع الشعر وخالصه ، فكان أن اختار المفضل قصائد نسبت اليه وسميت المفضليات . وتقبل الأدباء هذه القصائد بقبول حسن ، فرددها شيوخاً وتلاميذ ، وعلقوا عليها شروحاً وزيادات ، وكان للأصمعي في هذا الميدان نصيب وافر ، ويبدو أن الرشيد راقه صنيع المنصور والمفضل ، فإذا به يكل الى الأصمعي تأديب ابنه الأمين ، ويرغب اليه أن يختار قصائد من عيون الشعر القديم ليتعلمها ابنه ويدرب بها ، واستجاب الأصمعي لهذه الرغبة وجمع قصائد نسبت اليه وسميت « الأصمعيات » . وقد أعجب كبار الشعراء باختيار الأصمعي للقصائد الشعرية كما أعجبوا باختيار المفضل من قبل ، وأشادوا بمنزليتهما وأجمعوا على صحة الأشعار فيهما وتقديمها .

وتتألف الأصمعيات من اثنتين وتسعين قصيدة ومقطوعة من الرجز اختارها الأصمعي

لواحد وسبعين شاعراً ، أربعة وأربعون منهم جاهليون وأربعة عشر مخضرمون وستة اسلاميون وسبعة جهل الدارسون تاريخهم .

وتعالج القصائد موضوعات متنوعة ، ولم يعمد الأصمعي فيها الى تبويب ، غير أنها لم تنل ما نالته مجموعات شعرية بعدها ، فقد كانت قيمتها اللغوية تفوق قيمتها الفنية . ولم يعرف عن الأصمعي أنه كان شاعراً ولكنه كان نقاداً ، يتذوق الشعر ويحفظ جيده وله نظرات نقدية صحيحة دقيقة فيه وكان ، الى هذا ، مثالا للبلاغة في التحليل الأدبي .

وبعد فقد اشتهر الأصمعي بفكاهاته ونوادره وتهكمه اللاذع الفطري الظريف الذكي ، وكان يسمح لنفسه في النوادر والملح والطرائف أن يتزبد ويخترع . .

هذا هو الأصمعي عبد الملك بن قريب بن علي بن الأصمعي الباهلي اللغوي النحوي المشهور ، مات في خلافة المأمون بعد أن ترك ثروة من كتبه ، وانتزع اعجاب الكثيرين وتقديرهم ، وملاً بأخباره بطون الكتب الأدبية .

لقد كان من الرواد الأوائل الذين ساعدت مصنفاتهم اللغوية الموثقة والمختصرة على تأليف المصنفات المطولة التي اعتمد عليها واضعو المعاجم اللغوية ، وكانت سبيلا الى وضع علوم عربية أخرى منها اللغوي ومنها التاريخي ومنها الديني .

لقد كان الأصمعي عالماً ، بذل أقصى جهده في تحصيل علمه وقدم لنا زبدة معارفه ، فاستحق أن يدخل التاريخ ، وفي تاريخنا العربي أسماء كثيرة ، لمعت وأضاءت وكان لها الفضل في تمهيد السبل التي سارت في هديها العقول العربية المبدعة التي أعطت أفضل الثمار للفكر العربي وللحضارة الانسانية .

الهوامش :

١ - اللقب واللغوب : الضعيف الأحمق .

٢ - الفرض له عدة معان في التراث العربي وأغلب الظن ان المراد هنا تقدير السهام للورثة كما جاء في علم الفرائض ، واصحاب الفرض هم الورثة .

مصادر البحث :

- | | |
|------------------------------|----------------------|
| ١ - فقه اللغة | ١٠ - عبد الواحد وافي |
| ٢ - العصر العباسي الاول | ١١ - شوقي غيف |
| ٣ - الاعلام للزركلي | المجلد الرابع |
| ٤ - الموسوعة العربية الميسرة | |
| ٥ - الأصمعي حياته وآثاره | عبد الجبار جومرد |
| ٦ - جمهرة الأنساب | لابن حزم الأندلسي |
| ٧ - الانصاف في مسائل الخلاف | لابن الانباري |
| ٨ - الاختيارين | للاخفش الأصغر |
| ٩ - المفضليات | للمفضل الضبي |